التنويم والاستهواء

يكثر ورود المكتوبين على هذا الخطر في فصل الشتاء وبينهم اناس يدَّعون معرفة الغيب واكتشاف الغوامض بالاستهواء او شفاء الامراض والا وصاب يو فتكثر علينا مسائل السائلين عن كشف ما يرونهُ من الغرائب او صحة ما يدعيهِ اصحاب الاستهواء من شفاء الامراض

وقد كتبنا عن التنويم والاستهواء فصولاً كثيرة في السنين الماضية ولا نرى بأساً الآن بذكر خلاصة ما حققهُ العلماء في هذا الموضوع مقتطفاً بعضهُ من مقالة فيهِ للدكتور هرلد هايس

(١) تاريخ الاستهواء

الاستهواء قديم ممارسهُ البابليون والاشوريون والمنود والفرس وغيرهم من الشعوب القديمة وكان كهنتهم يستهوون الناس او يستهوي بعضهم بعضاً فيعابون بشيء من الصرع والانجذاب. ولعلَّ كثيرين من كهانهم وانبيائهم كانوا من المعرَّضين للاستهواء الذاتي فتصيبهم غيبوبة يدَّعون ان نفوسهم مضت فيها الى عالم الارواح ومعاهد الآلهة ثم يبثون بما رأوهُ في احلامهم او توهموا انهم شعروهُ فيها. ولا يزال فقراء الهند يفعلون ذلك الى الآن يعتريهم نوع من الذهول او الانجذاب فيتخذون ذلك وسيلة للتعيش والتدجيل

وشاع الاستهواء في اوربا مدة القرون الوسطى ولكن لم يبحث فيهِ احد بحثاً علمياً الاَّ في اواسط القرن الثامن عشر. ونون من نبَّه الافكار اليهِ فردرك مسمر

ولد هذا الرجل في اواسط سنة ١٧٣٣ ودرس الطب في فينا ورغب في علم التنجيم وكان يظن ان للنجوم تأثيراً في احوال الناس ونسب هذا التأثير الى الكهربائية ثم الى المغنطيسية وجعل يحاول معالجة المرضى بالمغنطيس إما لسخافة عقلهِ او لأن علم الطب كان قد انحطَّ الى درجة التدجيل

وكان في سويسرا قس اسمهُ غسنر يدَّعي انهُ يشفي الامراض بالكلام والاشارات فيوقف المريض امامهُ ويستهويهِ بتلحين بعض الالحان ويقول لهُ لقد شفيت من مرضك فيشفى. ولعلهُ كان يفلح في شفاء الامراض العصبية او الاعتقالات الحادثة عن فعل عصبي. اما هو فكان يدعي ان المرض فعل شيطاني وهو يخرج الشيطان من المريض او يزيل سلطتهُ عنهُ فيشفى. فلما رآهُ مسمر ورأى انهُ يشفي الامراض من غير مغنطيس لم يعد يعبأ بالمغنطيس بل قال ان قوة الشفاء تصدر من الانسان نفسهِ وتؤثر في المريض فسماها بالمغنطيسية الحيوانية

وانتقل مسمر الى باريس سنة ١٧٧٨ فالتفّت عليهِ خلق كثير ودعيت هذه القوة الغريبة بالمسمرزم نسبة اليهِ . وصدّق بهِ كثيرون من الكبراء والعظماء فتم عليهِ الاطباء وبيّنوا انهُ دجال

ولما كثر عليهِ المرضى المستشفين بعلاجهِ حتى صار يتعذر عليهِ أن يعالج كلاً منهم على حدتهِ صار يربطهم بعضهم ببعض ويوصلهم بحوض كبير فيهِ قناني مملوّة بالماء وبرادة الحديد ويجعل بعض المغنين يغنون لهم باصوات رخيمة فيصيبهم نوع من الذهول او الصرع المتشنجي فيضطربون او يضحكون او يعانق بعضهم بعضاً وبعد ان تمرّ عليهم ساعات على هذا النمط يصيبهم شيء من الانجذاب والخمول

قال المسيو بينه العالم الفرنسوي واصفاً تلك المشاهد

" كان مسمر يلبس سترة من الحرير القرنفلي اللون ويمشي ذهاباً واياباً بين الجمع المضطرب ويبدهِ قضيب من الحديد يلمس بهِ اجسام المرضى المصطفين حولهُ ولاسيما الاعضاء المريضة وقد ينظر الى المريض طويلاً ويلمس بطنهُ وخاصرتيهِ ويكرّر ذلك مرةً بعد أخرى ساعات متوالية . واذا اراد ان يزيد تأثيرهُ فيهم وصل بهم مجرى كهربائياً قوياً . وجعل يلمس ابدانهم باصابعهِ مبتدئاً برؤوسهم ومنتهياً باقدامهم . وكان الفتيات يسردن بذلك ويتبعنهُ من مكان الى آخر ويقلن انهُ يستحيل عليهن ان لا يتعلقن بهِ "

والمظنون ان مسمر لم يكن خادعاً بل كان مخدوعاً بنفسهِ لكن اكاديمية العلوم ضيّقت عليهِ فغادر فرنسا ثم عاد اليها وتوفي سنة ١٨١٥ . واحتقرهُ الناس قبل موتهِ وقالوا انهُ دجّال والّفوا رواية هزلية للسخرية بهِ . وكتبت الجرائد الانكليزية وصفات طبيّة للهزء بهِ مثل هذه

الاكسير المغنطيسي . خذ من زيت الخوف والرعب اربع اواقٍ ومن روح الوهم رطلين وضع المادتين في زجاجة الخيال واتركهما فيها اياماً واشرب من ذلك اربعين نقطة في الصباح فتشفى من كل الاسقام

واتفق كثيرون خطوات مسمر ولكن لم يبحث احد منهم بحثاً علمياً عن حقيقة المغنطيسية الحيوانية الى ان قام الدكتور بريد الانكليزي والظاهر انهُ انكر المغنطيسية الحيوانية في اول الامر انكاراً باتاً لكنهُ رأى رجلاً من الذين يستعملونها في التطبيب اسمهُ لافونتين فاقنعهُ بصحتها . قال لافونتين هذا في كتاب نشرهُ سنة ١٨٦٦ اي بعد موت بريد بست سنوات انهُ شفى كثيرين من الخرس والعمي والمصابين بالصرع في مستشفى برمنهام وعاد الى لفربول فلم يفلح فيها فمضى منها الى منشستر فنجح فيها نجاحاً تاماً وكسب منها ثلاثين الف فرنك

ونوّم كثيرين من وجهائها وشفى بعض المصابين بالتهم ولما انصرف عنها قام الدكتور بريد وخطب خطبة برهن فيها ان المغنطيسيّة الحيوانية وهم من الاوهام . وكتب بعضهم الى لافونتين ليعود الى مشستر ويرى ما يدّعيهِ الدكتور بريد فعاد اليها ورأى ان الاساليب التي يستعملها الدكتور بريد للتنويم المغنطيسي لا يتم بها احد وان بريد سمّى المغنطيسيّة الحيوانية بالتنويم او النعول اتبعي . الّا ان الذهول الذي اشار بهِ الدكتور بريد هو الذي ثبت على الامتحان . وتعليلهُ لهُ هو اول تعليل علمي وهو ان التحديق المستمر يشلُّ المراكز العصبية المتسلطة على العين ويزيل توازن المجموع العصبي فيرتخي جفناها وينطبقان . فصار يمسك ببندوشيّاً لامعاً امام عيني من يريد تنويمهُ ويرفع يدهُ بهِ حتى يضطر الناظر اليهِ ان ينظر الى الاعلى فيتعب سريعاً ثم يدني الشيء اللامع منهُ رويداً رويداً فتتعب اجفان عينيهِ وتنطبق واذا لم تتعب في النوبة الاولى كرّر ذلك عليها وامر الناظر ان يوجه عينيهِ وعقلهُ الى ذلك الشيء

وقام كثيرون من العلماء بعد بريد في اوربا واميركا وبحثوا في التنويم واساليبهِ وفوائدهِ ومضارهِ وجمهورهم على ان سببهُ الاستهواء وان الذين ينوّمون بسهولة اعصابهم ضعيفة وقد ينامون من غير استهواء ولكن هذا لا ينفي فعل الاستهواء بالذين اعصابهم سليمة . واشتهر برنهيم في معالجة المرضى بالاستهواء في نسي فصار الناس يقصدونهُ من كل فج ولقبوهُ برجل الله

ولذلك يقسم تاريخ التنويم او الذهول الى اربعة اقسام الاول الزمن الذي مرَّ عليهِ قبل ايام مسمر حينما كانت افعال التنويم تنسب الى قوة روحية او شيطانية والثاني زمن مسمر حينما صارت تنسب الى فعل مغنطيسي قائم في الشخص المنوِّم . والثالث زمن بريد الذي نسب التنويم الى فعل فسيولوجي محض . والرابع زمن برنهيم وشركو وغيرهما من الذين ينسبون كل ظواهر التنويم الى فعل الاستهواء

(٢) حقيقة التنويم

لكل انسان حالات مختلفة من الشعور تتغيَّر بتغيُّر المؤثرات التي تؤثر فيهِ . افرض انك جالس في نادٍ تسمع خطبة عالية فما دمت منتبهاً لها لا تشعر بشيء آخر شعوراً شديداً ولكن لا يكون دماغك خالياً من كل شعور لانك قد تشعر ان المقعد الذي انت جالس عليهِ بارد او حار او خشن وان جارك قلق في مجلسهِ او نائم وان واحداً وراءك يتكلَّم مع جارهِ . وقد تقوى هذه المؤثرات فيتحوَّل انتباهك اليها كما اذا شعرت بحرارة شديدة في المقعد الذي انت عليهِ او اذا كلما جارك لوجههِ فاصاب رأسهُ ظهر المقعد الذي امامهُ اوعلا صوت الرجل الذي

وراءك فتصير افكارك تشب من موضوع الى آخر اي تتشتت ولا تبقى مجتمعة كما كانت اولاً . ويحدث لك مثل ذلك اذا نمت وصرت بين النوم واليقظة فان الافكار تتوارد على ذهنك حينئذٍ وكل منها يحاول ان يقيم فيه ليستأثر به ويطرد ما سواه فتختبط الافكار اختباطاً وتصير المؤثرات الخارجية تؤثر فيك تأثيراً كبيراً فاذا ضمن فراشك ظننت انك زججت في اتون واذا بردت قدماك ظننت انك حافياً تمشي على الثلج واذا كنت قد ثقلت عشاءك حسبت انك في معركة دموية وجسمك هدف لنبال الاعداء . ثم تزول الاحلام رويداً رويداً اي يزول هذا الشعور المختبط المرتبك ويستولي عليك السبات رويداً رويداً الى ان تنام نوماً عميقاً خالياً من الشعور

وهذا حال من ينام النوم الصناعي او المغنطيسي تضطرب افكاره اولاً ثم تصير كالاحلام ثم ينام نوماً خفيفاً ثم نوماً عميقاً يستغرق فيه

والنوم الطبيعي والصناعي متشابهان الاّ ان الصناعي يحدثه آخر ولا بدّ لمن ينامه من ان يثق بفضل المنوّم وبالاستهواء ويستيقظ عقله الباطن فيصير يتذكر اموراً نسيها في اليقظة ويعمل ما يؤمر به وتبدو عليه علامات الشعور بحسب ما يلقى اليه فاذا أُطعم سكّراً وقيل له هذا صبر تأفف من طعمه كأنه يأكل الصبر السقطري واذا أُطعم صبراً وقيل له هذا سكّر استطاب طعمه كأنه سكر

ويحدث هذا النوم من تعب الاعصاب كما قال الدكتور ريد اما سائر افعال المنوّمين فلا تعلّل بتعب الاعصاب بل بافعالها المختلفة فالتيبّس مثل الذي تتيبّس اعضاء النائمين النوم المغنطيسي سببهُ ان الدماغ ينبّه العضلات حتى تتوتّر على اشد قوتها . فاذا امسكت فتاة عصاً بيدها وحاولت نزعها منها طاوعتك عضلاتها حالما تتعب من الشد . هذا اذا كانت مستيقظة واما اذا كانت نائمة النوم المغنطيسي فان دماغها يأمر عضلاتها لكي لا تطاوع من يحاول نزع العصا منها . وقوة العضلات شديدة جدّاً ولكننا لا نستعملها كلها في اليقظة

وبذلك يعلّل ايضاً زوال الالم من الذين ينامون النوم المغنطيسي فانك اذا نخست اصبعك بابرة شعرت بألم شديد ومركز هذا الشعور ليس في اصبعك بل في دماغك فاذا زال الشعور من الدماغ بقدر من المخدرات كالافيون والبنج لم تشعر بالالم وكذلك اذا زال هذا الشعور بالاستهواء اي باقناع العقل ان الالم قد زال

وبه يعلل عدم خروج الدم من اجسام المنوّمين اذا نخستها بابرة لان الدم الذي يخرج من ظاهر الجسم يخرج من الاوعية الشعرية وهذه تضيق وتتسع بواسطة الاعصاب فاذا قبضتها

الاعصاب حتى ضاقت لم يعد الدم يخرج منها فلا يخرج من الجلد مكان نخس الابرة

وكذلك الشعور بالطعوم المختلفة فعل عصبي فاذا سمع النائم اسم السكر تذكر الشعور الذي كان يشعر به حينما يأكل السكر فشعر به واذا سمع اسم الصبر تذكر الشعور الذي كان يشعر به حينما يأكل صبرًا فشعر به ويحدث مثل ذلك في اليقظة فاذا اكل انسان لحمًا واستطابهُ حاسبًا انهُ لحم ضان ثم قيل لهُ انهُ لحم كلب جاشت نفسهُ وتقيأ ما اكلهُ كراهةً واذا تذكر اكلةً طيبة فاض لعابهُ كأنهُ يتهيأ لاكلها وكذلك اذا ذكر لهُ طعم حامض . ويحدث ايضًا في النوم الطبيعي فيحلم النائم انهُ اكل اكلةً طيبة فيستطيبها او سمع نغمًا مطربًا فيطرب لهُ اي يتذكر هذا الشعور تذكرًا

والافعال التي يؤمر بها النائم فيفعلها بعد ما يستيقظ تعليلها ان عقلهُ الباطن يذخر المؤثرات التي تؤثر فيهِ حال نومهِ فتفعل بهِ في اليقظة ايضًا

واغرب من ذلك ان يقال لهُ ان على بدنك حرَّاقة ولا يكون عليهِ سوى ورقة بسيطة فيحمر ما تحتها كأنها حرَّاقة صحيحة وما ذلك الَّا لانهُ يشعر حينئذٍ شعور من توضع حرَّاقة على جسمهِ وهذا الشعور يؤثر في الاعصاب التي تتحكم في ورود الدم الى المكان الذي قيل ان الحراقة وضعت عليهِ فيكثر وروده اليهِ كما لو كان عليهِ حرَّاقة حقيقية

ومن هذا القبيل ان البعض يتوهمون انهم جرحوا في مكان ما من جسمهم فيحمر ذلك المكان ويخرج منهُ الدم

ومنهُ ان من كان لهاوي المزاج رضيَّ الاخلاق تجرح يدهُ مثلاً او ينبت داحس سيف اصبعهِ فلا يكترث لهُ فيشق حالاً واما العصبي المزاج الشديد القلق الذي يعظم الامور ويصيِّر الحبَّة قبة فاذا جرحت يدهُ التهبت وصار شفارُها واذا اصابهُ داحس اضطرهُ الى عملية جراحية لشدة فعل اعصابهِ باعضائهِ

اما المنوِّمون الذين يعرضون اعمالهم في المحافل العمومية لادهاش الناظرين والتعيُّش من اموالهم فقلما يعتمدون على افعال التنويم الحقيقي او قلما يكتفون بها والغالب انهم مشعوذون يستعملون الخفَّة والتدجيل ويعتمدون على الوهم الذي يستولي على الحضور حتى يروا الامور على غير ما هي عليهِ ويسمعون الاقوال على غير ما قيلت فهم الذين ينخدعون ويخدعون انفسهم. وقد يكون واحد من المشعوذين بارعًا في تكييف صوتهِ حتى تسمعهُ من رفيقهِ لا منهُ فيفعل بهِ غرائب الافعال كما ابنا في مقالة سابقة